الرجز وتطوره حتى العصر الأموي:دراسة تحليلية

(Development of *Rajaz* till the Umayyad Era: An Analytical Study)

محمد ظاهر شاه [*]

Abstract

Rajaz, a breed of *saj*' "rhymed prose" is an ancient meter in the Arabic Poetry, which is common in didactic poems. The proper meaning of the word is "tremor, spasm, convulsion (as may occur in the behind of a camel when it wants to rise)". The Arab poets had concentrated on this form of poetry since Pre-Islamic epoch. It is not clear how this word became a technical term in prosody. The grammatical and lexical irregularities and oddities found outside of rhyme in the *rajaz* verses has made it a favourite mine of *shawāhid* "evidentiary verses" for lexicographers and grammarians. In this article an attempt has been made to briefly study the etymology, history and the importance of *rajaz* in pre-Islamic, Islamic and Umayyad eras. Motives of development of *rajaz* in these ages have also been highlighted.

مما لا مراء فيه أن الرجز من البحور القديمة في الشعر العربي تولد من السجع مرتبطا بالحداء ووقع أخفاف الإبل في أثناء سيرها في الصحراء , وهو كان أكثر أوزان الشعر شيوعا في الجاهلية , إذ كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب , وهي كثرة تؤكد أنه كان الوزن الشعبي الذي يدور على كل لسان .

تطور هذا الوزن في العصر الأموي تطورا لا مثيل له حتى شُبه بالقصيد وساهم في تطويره كثير من الشعراء والرجاز وأبرزهم الأغلب والعجاج وابنه رؤبة اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز , فنظرا لأهمية هذاالوزن الشعبي تاريخيا وتطوره في العصور المنصرمة لذا حاولت القيام بتعريفه وتاريخه وتطوره وأسباب إلمام الشعراء والرجاز به في هذاالمقال .

[*] محاضربمعهد الدراسات الاسلامة والعربية، جامعة بشاور

1-الرجز لغة

قال خليل بن أحمد الفراهيدي : الرجز مصدر من رَجَزَ يَرْجُزُ ويَرْتَجِزُ والأراجيز جمع أرجوزة .... والرجز النعل [1] ويقول الزمخشري : رَجَزَ الشاعر يَرْجُزُ وهو راجز ورُجَّازورجازة ومن المجاز ارتجز الرعد إذا تدارك صوته كارتجاز الراجز[2] ويقول الزبيدي : الرَّجَز محركة داء يصيب الإبل في أعجازها والرِّجازة بالكسر مركب النساء وهو اصغر الهودج جمعه رجائز أوكساء فيه حجر يعلق بأحد جانبي الهودج ليعد له إذا مال وسمي بذلك لاضطراب وأصل الرجز الاضطراب وتتابع الحركات [3] وفي الحقيقة مادة (الراء والجيم والزاء) اصل يدل على اضطراب ..... فإذا ثارت الناقة ارتعشت فخذاها ومن هذاا الاشتقاق الرجز من الشعر لأنه مقطوع مضطرب [4] الأرجوزة للواحدة , والجمع أراجيز وقائله رجَاز ورجَّازة وراجز , رجز الراجز رجزا , وارتجز الرجاز ارتجازا :قال أرجوزة , تراجزوا وارتجزوا : تعاطوا بينهم الرجز [5] وعن الأخفش قال: سألت الخليل بعد أن عمل كتاب العروض لم سميت الطويل طويلا؟ قال لأنه طال بتمام أجزائه .....قلت فالرجز ؟ قال لاضطرابه كاضطراب قوايم الناقة عند القيام [6]

1-الرجز اصطلاحا

قال ابن منظور نقلا عن ابن سيدة : الرجز شعر ابتداء أجزائه سببان ثم وتد وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس [7] وقال الزبيدي في تعريف الرجز نقلا عن الأخفش : الرجز عند العرب كل ماكان على ثلاثة أجزاء وهو الذي يترنمون به في عملهم وسوقهم ويحدون به [8] ويقول السكاكي : اصل الرجز(مستفلن ستا) وهو في الاستعمال يسدس تارة على الاصل ويربع مجزوء أخرى ويثلث شطورا ثالثة .... ويثنى منهوكا رابعة [9] ويقول ابن رشيق : قد خص الناس باسم الرجز المشطور والمنهوك وما جرى مجراها وباسم القصيد ماطالت أبياته وليس كذلك لأن الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور والمنهوك والمقطوع [10] ويتضح من هذه الأقوال ان الرجز على قسمين : التام والمختصر والتام ماكانت تفاعيله ستا مثل :

دار لسلمى إذ سليمى جـــــارة	قفـــــــر ترى آياتها مــثل الـــز بر
مستفعـلن مستفعلن مستفعلن	مستفعــلن مستفعــلن مستفعــلن

والمختصر له ثلاثة أنواع

1- مجزوء الرجز ويربع أي ماكانت تفاعيله أربعا

مثل :

قد هاج قلبي منزل من أم عمر ومقفر مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

2- مشطور الرجز : ماكانت تفاعيله ثلاثا

مثل:

ماهاج احزانا وشجوا قد شجا مستفعلن مستفعلن مستفعلن

3- منهوك الرجز وهو مابقي البيت منه على تفعلتين مثل :

ياليتني فيهـا جـــــذع[11] مستفعـــلن مستفعـــلن

لقد صدق الحديث المروي : إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها وإن الرجز لمن سفساف القريض قصرتم أيها النفر فقصربكم [12] وزعم الخليل أن الرجز المشطور والمنهوك ليسا من الشعر وقيل ماهما ؟ قال : أنصاف مسجعة فلما رد عليه قال : لأحتجن عليهم بحجة فإن لم يقروابها عسفوا فأحتج عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لايجري على لسانه الشعر وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ستبدي لك الأيام مـاكنت جاهـــلا وياتيك بالأخبار مــــن لم تزودي

فكان يقول ستبدي لك الأيام ماكنت جـاهلا ويأتيك مــــن لم تزودي بالأخبار

فقد علمنا ان النصف الذي جرى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم لايكون شعرا إلا بتمام النصف الثاني على لفظه وعروضه , فالرجز المشطور مثل ذلك النصف وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الخندق :

هل أنت إلا إصبع رميت وفي سبيل الله مالقيت , فهذا على المشطور

وقال النبي صلى الله عليه وسلم أيضا :

أنا النبي لا كـــــذب أنا ابن عبـد المـــطلب

فهذا من المنهوك ولو كان شعرا ماجرى على لسانه فإن الله عزوجل يقول :

" وما علمناه الشعر ومايِنبغي له "[13]

لونظرنا إلى كلام الخليل واستدلاله بالأدلة المتنوعة لوجدنا أن الخليل ربما نظر إلى الرجز بنظرة دينية ولكن في الحقيقة الأمر ليس كذلك وإنما الدليل في قول النبي صلى الله عليه وسلم عدم القصد والنية لأنه لم يقصد به الشعر ولانواه فلذلك لايعد شعرا و إن كان كلامه متزنا [14]

3. الرجز في الجاهلية

الرجز نمط من الشعر يتمثل فيه النقيضان : السرعة والبطء , لذا استعمل في مواقف مختلفة القصد والغاية ,وقد جعلته هذه الخصية مركبا مطواعا لمن ركبه من الشعراء و الرجازين [15] لذا لم يهمل شعراء الجاهلية جانب الرجز في عصرهم , فكانوا يستخدمونه في مواقف متعددة الأغراض كما استخدموا القصيد , وكان الرجز هو الغالب عليهم في الحداء , إذ كانوا يحدون الإبل أثناء سراها ليلا بأراجيز وأشعار,و ذلك حين ينتشر ظلام الليل ويرخي سدوله على الكون كله ويعمهم السكون حينئذ يعمد الساري في الصحراء إلى شطور من الرجز يجد فيها شيئا من المتعة و النشاط حتى لاتضعف منته وقوته كأنما كان الجاهلي يوقع رجزحدائه على حركة بعيره ووقع أقدامه في الصحراء , وهو حداء شعبي نجده في كل مكان وعلى كل لسان .

ويزعم العرب أن أول من قال الرجز مضر بن نزار حين سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه , وكان من أحسن خلق الله صوتا فأصغت الإبل إليه وحدت في السير فقطعوا على هذا الوزن لحن الحداء وسموه الرجز[16] ويذكر الدكتور شوقي ضيف مواطن استخدام الرجز فيقول : .....وكانوا يستخدمونه في حروبهم , فلا يصول ويجول في ميدان جاهلي إلا وهو ينشد بعض الرجز أو بعض الشعر مستعينا بذلك على الحركة والنشاط , وأمامنا حروبهم كحرب البسوس بين بكر وتغلب وكحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان فإننا لانكاد نرى أحدا يقبل على القتال إلا وهو يقول أشعارا رجزا وغير رجز ودائما الرجزهو الغالب , وبالمثل كانوا يصنعون ذلك حين كانوا يحفرون بئرا , من ذلك : حفر بئر عبد شمس بئرين سماهما خما ورما وفي ذلك يقول :

حفــرت خما وحفــرت رمــا   حتى أرى المجـــد لنا قـــد تما

وحفر قصي جد الرسول صلى الله عليه وسلم بئرا سماها العجول وفي ذلك يقول أحد الرجاز :

نروي عـــلى العجول ثم ننطلق قبل صـــــدور الحاج مـن كل أفق

إن قصيا قد وافي وقـد صــدق بالشـــبع للناس وريٍّ مـــــــغتبق

ومااشتهر عن نساء الجاهلية من ترقيصهن للأ طفالهن تدليلا لهم ولعبا معهم ومعابثة , من ذلك قول أم الفضل ترقص ابنها عبد الله بن عباس بن عبد المطلب :

ثكلت نفسي وثكلت بكـــري إن لم يسد فهــــرا وغير فهــــري

بالحسب العــدّ وبذل الوفـــــر حتى يوارى في ضــــريح القبــــر [17]

4-الرجز بعد بزوغ فجر الإسلام

لما جاء الإسلام لم يفقد الرجز شهرته بل كثر وازداد , وكانت له سوق رائجة , ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كثرة الحروب والوقائع بين المسلمين وغيرهم من العرب واليهود , حتى أنه جرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم منهوك الرجز ومشطوره —كما مرسالفا — وفي كتب التاريخ حشد كبير من الأراجيز التي قالها الصحابة رضوان الله عليهم عند اقتحامهم ميادين القتال , من ذلك ماروي عن ابن جرير أن عمير ا- رضي الله عنه — قاتل يوم بدر وهو يقول :

ركضـــا إلى الله بغـــــــير زاد إلا التقى وعـــــــمل المعــــــاد

والصــــــبر في الله على الجهاد وكل زاد عــــــــرضة النفـــــــاد

غـــــير التقى والبر والــــــرشاد[18])

وكذلك ماروي عن ابن اسحاق أن أبا دجانة الصحابي — رضي الله عنه — لما أخذ السيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بدأ يرتجز :

أنا الذي عاهـــدني خـــــليلي ونحــــــن بالسفح لدى النخـيل

أن لا أقوم الدهـــــــر في الكيول أضــــــــرب بسيف الله والرسول [19]

وروي عن ابن اسحاق أيضا أرجوزة عاصم بن ثابت الصحابي في غزوة الرجيع يقول:

مــــــاعـلتي وأنا جـــــلد نابل والقوس فيهـــا وتـر عــــــنابل

تزل عــــن صفحتها المعــــــابل الموت حـــق والحياة باطـــــــل

وكل مـــــــــــــاحم الإله نازل بالمـــــــرء والمـــــــــرء إليه آيل

إن لم أقاتلكـــم فأمي هـــابل [20]

5-الرجز في العصر الأموي

وإذا انتقلنا إلى العصر الأموي نرى أن أمر الرجز استفحل وتفاقم وأضحى يستعمل في كل الأغراض الشعرية مثل القصيد , كذلك بدأ الشعراء في هذا العصر يتزايدون في الرجز على الأشطر الثلاثة , إذ كانت العرب قبل ذلك يكتفون في الرجز على ثلاثة أشطر , وإلى ذلك يعود سبب تسميته لأن الرجز في الأصل وقوف الناقة على ثلاث إذا شدت إحدى يديها .

يقول ابن قتيبة : ..... وكان الأغلب جاهليا إسلاميا وقتل بنهاوند وهو أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله وكان الرجز قبله إنما يقول الرجل منه البيتين أو الثلاثة إذا خاصم أو شاتم أو فاخر[21]

و إلى ذلك أشار الدكتور شوقي ضيف قائلا : إن وزن الرجز كان محدودا في العصر الجاهلي فهو لايكاد ينظم إلا شطورا قليلة , وهي شطور كانت تقال في الحركة السريعة في الحرب أو في الحداء أو عند المتح من بئر , فلما جاء عصر بني أمية واتسعت معه طاقة هذا الوزن رأينا طائفة من أصحابه يحاولون أن يمدوا أطناب طاقته مدا واسعا , فإذاهم يؤلفون أراجيز طويلة طولا مسرفا , وإذهم يستخدمونها في كل ما تستخدم فيه القصيدة من نسيب و مديح و فخر و هجاء وعتاب , وذا كنا قد لاحظنا في القصيدة التئاما واتساقا مع الرقي العقلي الذي صادف العرب , والتئاما واتساقا أيضا مع نفسيتهم الجديدة التي بثها الإسلام , والتئاما واتساقا أيضا مع الظروف السياسية المعاصرة , فإن الأرجوزة قد شاركت في هذا كله [22] كذلك نرى أن الرجز أصبح في هذاالعصر لايؤلف لأجل التعبير عن العواطف فحسب , بل صار معجما لغويا يؤتى فيه بكل آبدة لغوية مسبوقة أو مبتكرة , وبالصياغات غير المألوفة في العربية , بل ألزم بعض الشعراء على أنفسهم صناعة الرجز وتحسينه , فقلما نجده ينشد قصيدة , وذكر الدكتور شوقي أسماء بعضهم يقول : ..... حتى يقصر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويد هـ وتحبيره ... منهم دكين بن رجاء الفقيمي ودكين بن سعيد الدارمي ومنهم الزفيان السعدي , وأبرزهم جميعا العجاج وابنه رؤبة اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز [23] أما العجاج فهو أطال الرجز وقصده وهو في الرجاز كإمرئ القيس في الشعراء [24] وقال ذو الرمة : قلت الرجز فلما رأيتني لاأرفع من الرجلين أخذت في القصيد وتركته يعني العجاج ورؤبة , ومرة قال أبو العتاهية لابن

مناذر : إن كنت أردت ليشعرك العجاج ورؤبة فما صنعت شيئا وإن كنت أردت أهل زمانك فما أخذت ماأخذنا [25] وقال ابن رشيق نقلا عن يونس : إن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد وقال : إنما هو كلام فأجود كلاما أشعرهم والعجاج ليس في شعره شيئ يستطيع أحد أن يقول [26] ويمكن إجمال ماسبق أن الرجز وزن شعبي مرتبط بحياة الشاعر العربي في العصر الجاهلي والإسلامي وتفنن فيه في العصر الأموي وشُبِّه بالقصيد من حيث الإطالة والأغراض حتى صار معجما لغويا يستشهد به في القواعد النحوية .

الهــوامش والمراجع

[1]ـ كتاب العين لخليل بن أحمد الفراهيدي, ط: الأولى , انشارات أسوة- قم إيران, 1414. مادة (رجز)

[2]ـ أساس البلاغة محمد باسل عيون السود ط: دار الكتب العلمية بيروت لبنان 537 هـ. مادة (رجز)

[3]ـ تاج العروس أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسين , دار الفكر 1414هـ مادة (رجز)

[4]ـ معجم مقاييس اللغة / أحمد بن فارس , أحمد بن فارس بن زكريا, مكتب الإعلام الإسلامي 1404. ص: 489

[5]ـ لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور , نشر أدب الجوزة 1405. مادة(رجز)

[6]ـ العمدة في محاسن الشعر/ الحسن بن رشيق القيرواني. ط: الأخيرة, دار ومكتبة الهلال 1421. ج1, ص: 240

[7]ـ لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور , نشر أدب الجوزة 1405. مادة (رجز)

[8]ـ مفتاح العلوم :. أبو يعقوب يوسف بن ابي بكربن على السكاكي :621هـ, ط: 6 دارالكتب العلمية بيروت لبنان1407هـ. ص : 453

[9]ـ العمدة : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني, ط: الأخيرة , دار ومكتبة الهلال 1421. ج: 1 ص: 305.

[10]ـ مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف بن ابي بكر بن على: 621 هـ, ط: 6 دار الكتب العلمية , بيروت لبنان 1407هـ. 543-544.

[11]ـ رسالة الغفران : أبو العلا ء المعري ط: الأخيرة دار ومكتبة الهلال 1420 / 200, ص: 37

[12]ـ كتاب العين مادة (رجز)

[13]ـ العمدة :309/1

[14]ـ العروض تهذيبه وإعادة تدوينه : الشيخ جلال الحنفي , ط : الثالثة , دار الشؤو ن الثقافية العامة , بغداد . ص : 642

[15]ـ من هامش كتاب " تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن زيات , ط : 24 , فاروقي كتب خانه , د . ت , ص:29

[16]ـ الشعر وطوابعه الشعبية ,شوقي ضيف , دار المعارف , مصر , د.ت . ص : 16

[17]ـ البداية والنهاية عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير , تحقيق : أحمد عبد الوهاب فتيح , ط : الأولى , دار الحديث , القاهرة . : 3/ 313

[18]ـ المرجع السابق : 4/ 18

[19]ـ المرجع السابق : 4/ 67

[20]ـ الشعر والشعراء : عبد الله بن مسلم بن قتيبة , ط : الأولى , دار الكتب العلمية , بيروت , 1421 . ص : 442

[21]ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي : شوقي ضيف , ط : السادسة , دارالمعارف , مصر, د. ت . ص : 315

[22]ـ تاريخ الأدب العربي :شوقي ضيف , ط: السابعة , دار المعارف , مصر , د.ت . 2/395- 396

[23]ـ العمدة : 1/ 158

[24]ـ الموشح :محمد بن عمران بن موسى أبو عبيد الله المرزباني (384 هـ) , ت: علي محمد البجارة , دار الفكر , القاهرة , د. ت . ص : 229

[25]ـ الموشح : ص: 299

[26]ـ العمدة : 1/ 158 وانظر الأغاني :18/ 124